من تراب الطريق ! (٦٥٢)

الرحمة من أصول العدل في الاسلام (*)

يظن بعض السطحيين ، أو المغالين ، أنه لا موضع للرحمة مع الخطأ ، وأن الخطأ مانع من موانع الرحمة لا محل لها معه ، ويغالى البعض فيحسب أن الرفق والتعاطف الإنسانى لا موضع ولا محل لهما مع الخطأ . وهذا فهم سطحى لا يغوص ولا يتأمل ولا يلم بجوهر الإسلام ومبادئه إلمامًا شاملاً صحيحًا .

فالخطأ ذاته مقدور ، لا يعز عليه بشر، والعصمة لله وحده ولمن عصم من رسله وأنبيائه ، وفى الحديث الشريف أن كل البشر خطاؤون ، وأن خير الخطائين التوابون .. فالإسلام لا يغلق بابه ولا يصد المخطئ عن التوبة وطلب العفو والمغفرة . والعدل سواء وقسط واعتدال ، وليس ثأرًا ولا عصفًا ولا انتقامًا .. وتجد العدل مقرونًا بالإحسان فى آيات الكتاب الحكيم.. والحق سبحانه وتعالى يأمر مع العدل بالإحسان ، فيقول عز من قائل : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ » (سورة النحل الآية ٩٠) .. ويحيط هذا العدل بسياج يضمن عدم الخروج عنه أو الشطط فيه ، فتقول الآية الكريمة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا

(*) المال فى ٨ /٢٠١٢/١١

تَعْمَلُونَ » (سورة المائدة الآية ٨) .. ويحصن المخطئ مما قد يفقده التمييز أو حرية الاختيار ، فيسقط عنه الحد أو العقوبة إذا كان به مس أو عاهة فى العقل أو ألّمت به حالة ضرورة تفقده القدرة على الاختيار الحر بين البدائل التى تعرض له أو تُفرض عليه .. فحالة الضرورة سبب عام من أسباب الإباحة فى الإسلام .. فيقول الحكم العدل تبارك وتعالى : « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ » (سورة البقرة الآية ١٧٣) بل ويدرك المضطر برحمته وغفرانه ، فيقول فى سورة النحل « فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (سورة النحل الآية ١١٥) ، ويقول فى سورة الأنعام : «فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (سورة الأنعام الآية ١٤٥) .. وفى الحديث الشريف : « الضرورات تبيح المحظورات » ، والخطأ لا تعميم ولا خلط ولا تخليط فيه ، فلا تزر وازرة وزر أخرى وتكرر ذكر ذلك فى الآيات ١٦٤ من سورة الأنعام و ١٨ من سورة فاطر و ١٥ من سورة الإسراء و٣٨ ،٣٩ من سورة النجم ، وكل خطأ بقدره ، وأنه إذا كانت الحسنة بعشر أمثالها ، وقد تزيد ، فإن السيئة بمثلها.. ويحمى القرآن من سوء الظن ويحذر منه ، فيقول الحكم العدل سبحانه وتعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » (سورة الحجرات الآية ١٢) ، ويقول سبحانه فى وجوب التحرى والتبين والتثبت احتياطًا من الظلم والاندفاع الأعمى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » (سورة الحجرات الآية ٦) .. واحتاط تعالت حكمته للمشهود عليه من الشاهد ، فشرط أن يكون من ذوى

العدل، فقال عز من قائل : « وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ » (سورة الطلاق الآية ٢) .. وفى حديث رسول القرآن ـ عليه الصلاة والسلام : « لا تُقبل شهادة خصم ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة ولا ذى إحنه ـ (أى عداوة) » ، فالشبهة مسقطة للعدالة ومن ثم للشهادة التى هى ركاز للعدل . فأمر ـ عز وجل ـ باجتناب شهادة الزور ، فقال : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ » (سورة الحج الآية ٣٠) ، ووصف المؤمنين بأنهم الذى لا يتورطون فى قول الزور ، فقال فيهم جل شأنه : « وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » (سورة الفرقان الآية ٧٢) .

و الرحمة أصل من أصول الإسلام لا يفارق سجية من سجاياه ، ومنها سجية العدل ، والرفق فرع أصيل على هذه الرحمة .. فمن أسماء الله الحسنى : « الرحمن الرحيم » .. وكلاهما مشتق من الرحمة ، وحظ المسلم من هذه الصفة الإلهية أن يكون رحيمًا ، وأن يرحم عباد الله ومخلوقاته ، لا يستثنى منهم أحدًا حتى الطير والحيوان .. يفتح للمخطىء طريقًا إلى الفهم والإدراك والاتعاظ والتوبة .. باللطف والرفق ، لا بالبطش والعنف .. بعين الرحمة لا بعين الإيذاء .. ومن أسمائه ـ عز وجل: السلام ، والغفار والستار واللطيف.. وحظ المسلم من هذه الصفات الإلهية أن يكون سلمًا للآخرين، وأن يستر من غيره ما يجب أن يستر من نفسه ، وفى حديث رسول القرآن ـ عليه الصلاة والسلام : « من ستر على عبد عورته ستر الله عورته يوم القيامة» .. وأن يغفر لهم ما فرط منهم ، فرحمة الله تعالى وغفرانه تدرك عباده، ويعلمهم ذلك فيقول لهم : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ

اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (سورة النور الآية ٢٢) ، وهو سبحانه القائل : « لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (سورة الزمر الآية ٥٣) .

و الرفق سجية نابعة من الرحمة ، فالله تعالى إذ يأمر بالعدل والإحسان ، فإنه قد أمر بالرحمة والغفران ، وزان المسلم بفضيلة الرفق حتى فى العقاب، وحتى فى ذبح الحيوان والطير الذى أحل ذبحه .. وفى حديث الرحمة المهداة ـ عليه الصلاة والسلام : « من أُعطى حظه من الرفق فقد أُعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من خير الدنيا والآخرة » ، وفى حديث آخر ، يقول ﷺ : « عليك بالرفق فإنه لا يدخل فى شىءٍ إلاَّ زانه ولا ينزع من شيءٍ إلاَّ شانه » (أى عابه) .

القصاص لم يُجعل فى الإسلام للثأر أو التشفى أو الانتقام ، بل جعل لصيانة الحياة ، فقال سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (سورة البقرة الآية ١٧٩) .. والعفو مقدم على القصاص ، فقال سبحانه وتعالى :« وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (سورة التغابن الآية ١٤) ، وفى سورة الأعراف : «وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » . (سورة البقرة الآية ٢٣٧) .. وروى البخارى بسنده من رواية على لعمر ـ رضى الله عنه : « أما علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يُفيق ، وعن الصبى حتى يدرك ، وعن النائم حتى يستيقظ » ، وروى بسنده أن رجلاً جاء رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال : « يا رسول الله إنى أصبت حدًّا فأقمه علىَّ ، قال : ولم يسأله عنه ، وحَضَرَتْ

الصلاة فصلى مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ، فلما قضى النبى ﷺ الصلاة قام إليه الرجل فقال : « يا رسول الله إنى أصبت حدًّا فأقم فىّ كتاب الله ، قال ـ عليه الصلاة والسلام: « أليس قد صليت معنا ؟ قال الرجل : نعم . قال : فإن الله قد غفر لك ذنبك » .

لا تعارض فى الإسلام بين العدالة وموجباتها ، وبين الرحمة ومعطياتها ، والرفق وفضله ، والعفو والمغفرة ومثوبتهما ، بل إن الرحمة أصل من أصول العدالة والإسلام .

* * *